خدر وجحيم

(قصص قصيرة)

هاني نعيم

2013

القصص القصيرة ليست بحاجة إلى مقدّمات

ليلة قدره: جحيم، سرياليّة وخدر

2013/07/15

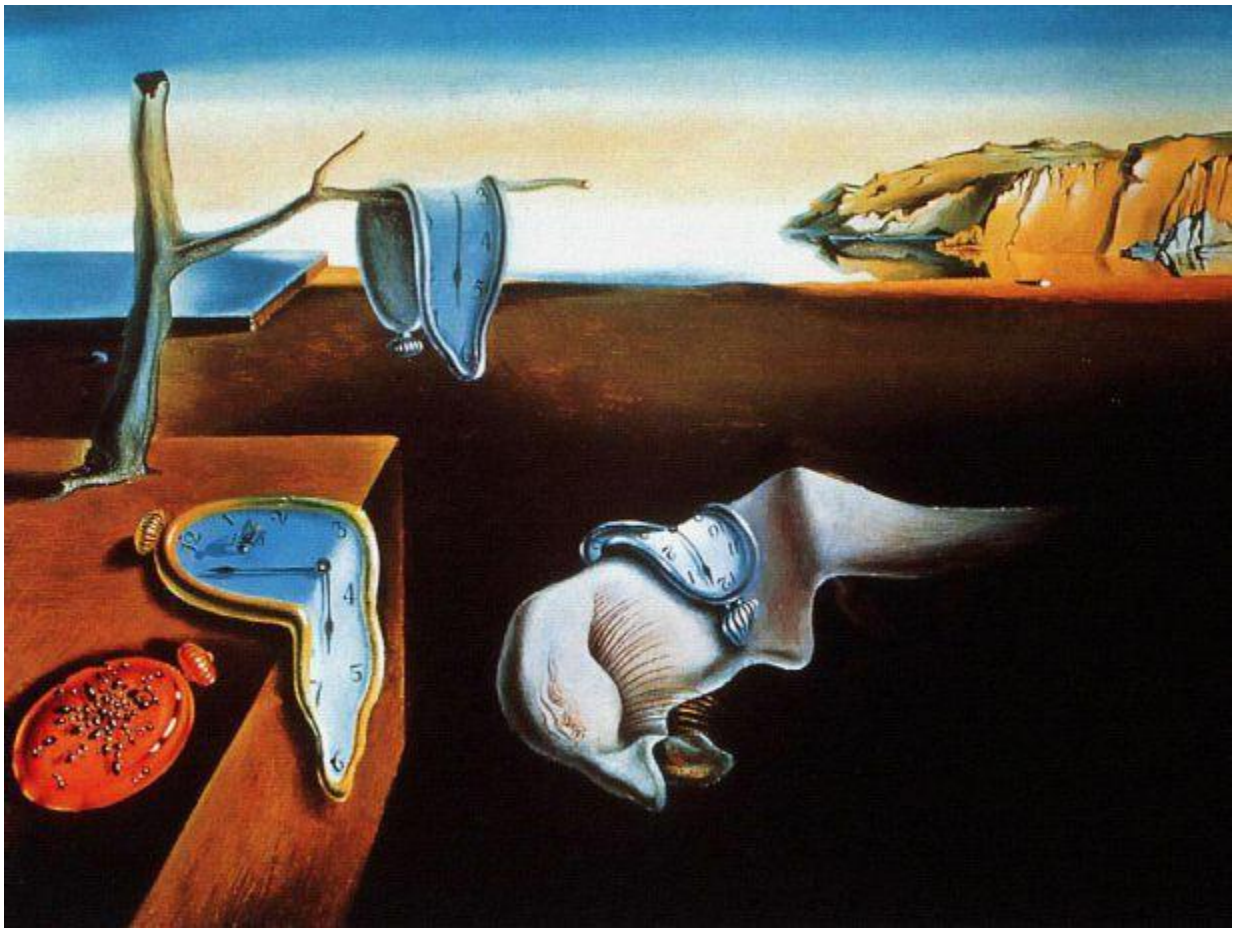

هو لم ينتظر الجحيم يوماً. يقينه كان أنّه مسكون بالجحيم منذ أن كان في أحشاء أمه. ما كان يفصله عن العالم الخارجي مجرّد غشاء قاس. الضوضاء كانت تتسرّب إليه رغم أنّه محاصر بسوائل غريبة، ملتصقة بجسده الضئيل، ومكبّلة يديه، أرجله وعنقه. حينها لم يكن لديه خيارات كثيرة، كل ما كان بإمكانه التوصّل إليه من خلاصات واستنتاجات هو أنّ العالم الذي سيخرج إليه بعد عدّة أشهر لن يكون كما يوحي إليه أحد. في بادىء الأمر، انتابه قلق بحجم جسده.

لاحقاً قناعة اخرى كانت تأخذ حيّزها في مسامات روحه المترامية. قناعة جاءت بعد احتكاكه بالضوضاء وهي أنّ العالم ليس جحيميّاً كما خيّل إليه، بل الجحيم يعيش في داخله هو. وهذا ما منحه اطمئنان نادر، وأبعد عنه الأرق الأزلي.

كل يوم يمضي كان يستشكف زوايا اخرى من الجحيم. ساعدته المدرسة، كجهاز تعليمي سلطوي، على دخول العالم المظلم الخاص بالأطفال، من الناظر العابس والغاضب أغلب الأحيان، إلى الولد المتنمّر الذي لا يكفّ عن

مضايقته. رغم أنّ خوفاً ما ملأ أوّل سنوات دراسته كونه لم يكن مستوعباً بعد ما يجري من حوله، ولكنّ حادثة صغيرة غيّرت فيه الكثير، وأخذته إلى الضفّة الاخرى من العالم المظلم.
في أحد الأيام، عندما طارده الولد المتنمّر ليأخذ منه سندويشته التي كانت تعدّها والدته بدفء منقرض، دافع على غير عادة عن نفسه وعن ممتلكاته المحدودة، وقام بضرب المتنمّر وأوقعه أرضاً. تفاجأ من ما كان يحمله في داخله من عنف وقسوة، ولكنّه لم يُبرز ذلك للمتنمّر، وهكذا أصبح هو المتنمّر الذي يخاف منه ذلك الولد، وأصبح يتحاشى المرور بجانبه، وهذه كانت أوّل معركة يخوضها وينتصر فيها للجحيم الذي يسكنه.

لاحقاً، اكتشف لغزاً سهّل عليه فهم العالم، وهذا ما ساعده على العيش فيه دون اضطراب. ففي إحدى الليالي، عندما كان عالق في شقّته الضيّقة التي تقع في إحدى ضواحي المدينة، يحتسي الجاك دانيالز ويستمتع بالجاز، اكتشف الخيط الرفيع الذي يربط جحيمه الداخلي بسرياليّة العالم. ومضت عيناه وكأنّه رجل كهف وجد فريسته التي سيأكل منها هو وعائلته لخمسة أيّام مقبلة، وهذا ما سيُريحه من الصيد لبعض الوقت، ولكن ما وجده هو فريسة أبديّة، يمكنها أن تكون زوّادته حتى اليوم الأخير لوجوده على الكوكب، وحتّى لآخر نفس سيتنفسه، بغض النظر عن الطريقة التي سيموت فيها إن كان موتاً بطيئاً على الكنبة، تحطّم طائرة يقلّها إلى إحدى الجزر النائيّة، أو في حروب أهليّة متفرّقة، خصوصاً وأنّه يعيش في مدينة تعشق الحروب العابرة.

في تلك الليلة، كان الجحيم في داخله يغطّي أصقاع روحه. جحيمه أصبح بحجم الكون، وهذا ما يجعله ثقيلاً، ولكن في الآن عينه، كان العالم في الخارج يزداد سيراليّة، وعبثيّة. فهو هش بجوهره، هزلي وغير قابل للتصديق.

كانت السرياليّة تُحيط كل شيء: الناس، الشارع، المدن، المدارس، مكاتب العمل، المصانع، دهاليز السلطات، أقبيّة المخابرات، وشاشات التلفاز. لم تترك السرياليّة مكاناً إلاّ وكانت تسكنه. يبدو العالم له وكأنّه مشهد طويل من السيتكوم الساخرة، وهذا ما يجعله خفيفاً عليه.

أكتشف أنّ الجحيم والسرياليّة مترابطان بحبل خفيّ، كالجنين وامه. فهما يكبران معاً، ويتغذيان من بعضهما البعض. في تلك اللحظة، وجد ضالّته، انزل بعض من الأرق عن كتفيه، وبعد أن كان شعوره بأنّ قدره يقوده إلى الهاوية، وجد التوازن الذي يجعله واقفاً على الحافة التي تفصل ما بين العالمين: جحيمه الداخلي وسرياليّة العالم.

هي الحافة التي تمنحه بعض من الخفّة، وبعض من الثقل. أما الباقي فهي تفاصيل يكتب عنها عندما يقلّ منسوب الخمر في جسده، ويخف الخدر الذي يلفّ دماغه. دائماً ما يأخذه الخدر إلى زوايا مظلمة في روحه تنير دربه الطويل.

عبث، حرب وآيس كريم

2013/06/19

هو لا يشبه الآخرين، ولا يختلف عنهم بشيء. مضى عام ونصف على انخراطه في القتال الذي يبدو له الآن بأنّه لن ينتهي في المدى المنظور. منذ ذلك الحين لم يلتقي بأحد من عائلته التي نزحت إلى إحدى المدن الساحليّة الهادئة بعد قصف منزلهم وتدميره.

ما بين البارود والموت تتوزّع ذاكرته التي مازالت تحفظ وجوه أحبائه ومن فقدهم، عدا ذلك ليس سوى السراب يسكن أحشائه. يوميّاته المتكررة تشبه بعضها لحد الملل، رغم أنّ احتمال موته يتكرر في كل دقيقة.

مع اشتداد الحرب، وكلّما سنحت له الفرصة بأن يكون وحيداً، يشرد بالوجود وما فيه. شروده لا يحمل الكثير من البصريّات، وكأنّ كيانه محاط بالضباب. لوهلة نسي لماذا يُشارك في الحرب التي أصبحت لا تعني له شيئاً سوى أن يبقى على قيد الحياة. هو عالق في الحرب، وإلى حين انتهائها، سيُدافع عن حياته، وقد يقوم بقتل آخرين من أجل ذلك. تصالح مع هذه الفكرة بعد أن مات رفيقه بين يديه إثر إصابته بطلقة قناص.

أحلامه تقلّصت منذ اليوم الأوّل لحمله السلاح. التجريد أصبح سمة من سمات حياته. كل شيء تغيّر، حتى الوطن الذي يُريده حرّاً أصبح مجرّد ركام، وخالٍ من أهله. المنطقة التي يُقاتل فيها خالية من كل الذين لا يحملون السلاح. كل ما فيها ثلل عسكريّة، وبعض القطط التي تنازع من أجل البقاء.

مع الوقت أصبح لديه قطّته المفضّلة. هي قطّة شقراء صغيرة، أصبحت رفيقة الملل الحربي، تمرّ كل يوم به، يُشاركها بعض من طعامه القليل، ويداعب رقبتها، قبل أن تذهب إلى مجهولها. أحياناً، كان يغار من القطّة، كان يشعر بأنّ ظروفها أفضل من تلك التي يعيشها، رغم أنّ الحرب فرضت عليهما معاً. في هذه اللحظة يتساوى مع الحطام والقطّة الشقراء غير المكترثة للوجود.

وحدها الشمس التي تخترق مساماته، وتحط على زنده وسلاحه تُعيده إلى الواقع الذي تجرّد من واقعيّته. لا مخرج له من هذا العالم. هو أشبه بكَون ذات مدخل واحد، نافذته تطلّ على اللامكان. ومع أنّ كل شيء يبدو كئيباً هنا، السماء تُعطي بُعداً مختلفاً للمشهد. تبدو صافية، زرقاء، متدفّقة كروحه التائهة. السماء شاهد آخر على الموت.
عالمه القديم انتهى إلى غير رجعة، وعندما ينظر إلى الوراء يشعر وكأنّ قرون طويلة مضت على دخوله هذا العالم، ولأنّ عالمه الجديد حقيقي بقسوته ورائحة بارودة، تنتابه أفكار بأنّ عالمه القديم لم يكن موجوداً في السابق، وما عاشه كان مجرّد تهويمات ورغبات ذهنيّة أكثر من كونها أحداث حدثت بالفعل معه. مع تشكّل العالم الجديد الذي يحياه بتفاصيله، أصبح عالمه القديم بحكم الواقع غير موجود. بالنسبة له، لا عالم خارج الحرب. الحرب هي الطريق.

الآن، يقف تحت الشمس الحارقة، حاملاً بندقيّة الكلاشينكوف على كتفه، ومستلقياً بجسده الأسمر على بقايا حائط بيت صغير. أحلامه أصبحت أصغر من وطن. يشتاق إلى الآيس كريم. مضى وقت طويل على عدم تناوله للآيس كريم بنكهة الفراولة. هي نكهته المفضّلة منذ أن كان صغيراً، وكانت أحلامه أكبر من وطن. ينظر إلى الركام حوله، يدخل إلى أعماق روحه، لم يعد يحتمل كل هذا العبث.

لم يعد يُريد شيئاً من هذا العالم، كل ما يُريده هو الاستمتاع بالآيس كريم.

خدر

2012/11/12

صوت الجاز لم يكن مرتفعاً. إيقاعه حمل بهجة دافئة عند المغيب البرتقالي. لم يشاركه أحد كوب القهوة الكبير الذي اعده للتوّ. لم يكن يطمح لشيء في تلك اللحظة، ولا حتّى في اللحظة التي تلتها. العالم في الخارج يجري ببطء شديد، وجميل. الشمس تختفي على مهل خلف البحر، أما ناطحة السحاب التي تشيّد قرب شقته، والتي بدأت تحجب اشعّة الشمس عنه، فهي تشقّ طريقها إلى الوجود المزدحم بالضوضاء، كما لو أنّ الكوكب بحاجة إلى المزيد من الأبراج الشاهقة.

بكل الأحوال، لم يسأله أحد فيما إذا كان يرغب بناطحة سحاب قرب منزله. هو قدر الجميع، وليس قدره وحده. يوم السبت يقترب من موته. يتذكّر السبت البيروتي، هو يومه المفضّل. فهو الذي تسبقه سهرة الجمعة الطويلة، وعادة ما يكون مفعم بالغيوم الخريفيّة، والمطر التشريني الغامض.

بينما يحتسي قهوته، تنتابه رغبة عميقة بالا يغادر الشقّة، وأن يستمتع بالجاز إلى الأبد. الخدر الذي زرعه الكحول في أنحاء رأسه وأطرافه بدأ بالتبدد. مازال غير قادراً على تذكّر كل ما حدث ليلة أمس التي تبدو الآن وكأنّها جرت منذ زمن بعيد نسبيّاً. يحاول أن يبدو مكترثاً ولكن دون جدوى. الآن، لم يعد يجدي أي شيء.

***

كم كانت الساعة عندما اقتربت منه لتسأله ما إذا كان يحمل سيجارة إضافيّة؟ ذلك التفصيل كتفاصيل اخرى لا يتذكّرها. يتذكّر أن الساعة كانت ما بين السابعة والتاسعة مساءً. ليس هذا السؤال الذي اشعل به رغبة دفينة، وبعيدة. في هذه اللحظة بعض من الرؤية تعود إلى ذهنه. الصور التي مرّت في رأسه كانت مزيجاً غريباً من الحركة والعبارات المتقطّعة. خاف من أن تختلط الصور عليه. استطاع بعد جهد أن يتذكّر لهجتها الغجريّة القاسية، والتي تحمل في طيّاتها غنج لا يُخفى على أحد.
جذبته من اللحظة الثانية. في اللحظة الأولى كان مشغولاً بتفقّد علبة سجائره ما إذا كانت تحتوي على سيجارة إضافيّة. وفي اللحظة التالية كان قد سمعها، وتأمّلها بما فيه الكفاية ليقول لها كلمات كانت كافية لتغيّر مسار رحلته ورحلتها.

للصدف الغريبة مكان في القصص الغريبة. هي وصلت للتوّ من مدينة بعيدة كانت تزورها. هو زار تلك المدينة في سنوات مضت. هي تعشق المدن الباردة بطقسها، والدافئة بحركتها. وهذا ما كان يجذبه إلى المكان. هو، بطبيعته، يُحب البرد، كمصدر وحي للذهن والروح، ويلتصق بالدفء الذي تمنحه ملامح الناس للمكان.

***

أثناء احتسائهما للنبيذ الأحمر، نسي أين كانت وجهته قبل أن يلتقيها. لهجتها وملامحها جعلته أسير سلام داخلي كان قد افتقده لفترة طويلة. هذا الفرح الذي يغمره الآن يشبه لحد بعيد الفرح الذي يشعر به عندما يستمع إلى لويس ارمسترنغ. لم يكن يُريد لهذه اللحظة أن تنتهي.

خرجا من الحانة التي كانت أضوائها الشاحبة تضفي بعض من العشق على وجودهما معاً. الخدر تسرّب بسلاسة إلى لسانهما وعيونهما. هذا كان آخر شيء يتذكّره قبل أن يستيقظ في غرفته المبعثرة بعض الشيء. شعر بأنّه نام لفترة طويلة. يلتفت بأنحاء الشقّة لا يجد أثراً لأي كائن آخر غيره. يشعر بوخز في رأسه. خدر خفيف يحلّ بجسده.

يعود إلى دوّاماته. يبدأ بتحضير قهوته، صوت الجاز لما يكن مرتفعاً، أما الشمس فكانت تختفي على مهل وراء البحر.

عطش غريب

2012/10/08

كل شيء بدا بطيئاً، بما في ذلك القطار الذي كان يمضي كالشهب المشتعل. أغمض عينيه قليلاً. شعر بالرطوبة تخرج من وجهه. تنهّد ببطء. أقشعرّ بدنه. رئتاه كانتا شفافتان في تلك اللحظة. كان بإمكانه أن يلحظ الهواء الخالِ من الاوكسيجين يمر عبر جسده، ويستقر في رئتيه الصغيرتين.

صعد والده إلى المقطورة. ولأنّ القطار في مثل تلك الساعة يكون بازدحام شديد، أغلقت أبواب القطار دون أن يتمكّن هو من الصعود. بقي خارجه. قام والده بالتلويح له بأن يستقل القطار التالي ويلقاه في المحطة التي يتوجهون إليها. انطلق القطار، أما هو الذي لم يبلغ الحادية عشر من عمره بعد، فقد ألقى وجهه على الواجهة الزجاجيّة للرصيف. شعر بأنّ هذا القطار لن يكون الأخير الذي يفوته. راودته فكرة غريبة نسبة لعمره. كان يرى نفسه الأخير في كل شيء.

نظر إلى يديه، وقرّبهما من بعضهما البعض. بدتا ثقيلتان، وبأنّه ليس قادراً على حملهما. هكذا كان يتخيّل الحياة التي هو بصددها. كان يعرف أنّها لن تكون كما يُشاهدها على التلفاز، وأنّه لن يحصل على كل ما يُريد. الحياة التي تنتظره شاقّة. خاف من أن يُصبح مثل روّاد القطار الذين عادة ما يُراقبهم أثناء عودته إلى المنزل مع والده. فُهم من النادر أن يبتسموا، دائمو الإنشغال، ومن التعب المفرط يغفون على مقاعدهم غير آبهين بكل الكون. نظر إلى الساعة التي تشير إلى الوقت المتبقّي للقطار التالي. هي خمسة دقائق اخرى سيمضيها في انتظار القطار. جلس على المقعد، دون أن يتلفّت إلى يمينه أو يساره، دون أن يُحدّق بشيء. في الواقع، لم يكن هناك، بل كان في عالم آخر مليء بالعتمة.

كان الظلام يُخيّم على رؤيته. فجأة أحسّ بأنّه بالغ، وكهل. فاقد القدرة على أيّ شيء. مستسلماً لقدره البائس. تذكّر كم أنّه ضعيف، وهزيل أمام قساوة الحياة التي لا ترحم. خفق قلبه. تنفّس ببطء. حبس الهواء في رئتيه بانتظار معجزة ما، معجزة أن يبقى طفلاً للأبد. أو أن يعود به الزمن إلى الوراء. كان يُريد أن يكون عمره سنتان. كان يُريد الهروب من المدرسة، وأن لا يرى الطفل المتنمّر الذي يبلغ عمره ثلاثة عشرة عاماً. ذلك المتنمّر كان يسخر منه دائماً، ويزرع الخوف فيه لأسباب لا يعرفها. وعندما طلب من أهله أن يغيّروا مدرسته، لم يقتنعوا بكل الأسباب التي شرحها لهُم، وطبعاً لم يُصراحهم بحقيقة أن طفلاً آخراً يُخيفه، ويسخر منه. هكذا، شكّلت المدرسة له الخوف الأول. هو الخوف الذي صارعه لفترة طويلة، قبل أن يتقبّله، ويتعايش معه.

عندما بدأ يتعايش مع فكرة أن الخوف يسكن مفاصل عظامه كان يشعر أنّ ذلك يمنع جسده من أن يكبر. كان يُدرك أن مستقبله سيكون داكناً، مفعماً بالخيبات، والانتكاسات. كان يتمنى بأن يبقى إلى جانب امّه التي كانت تمنحه عالماً خالياً من الخوف. ولكنّه في أعماق نفسه كان يعرف أنّ ذلك سينتهي يوماً ما، وبأنّه سيواجه العالم وحده، بيدين عاريتين، وبصدرٍ مليء بالفزع.

دقيقة ليصل القطار. ينتابه عطش غريب. يتذكّر أنّ والده سيلقاه في المحطة القادمة. يشعر بأنّه عاد للتوّ من ذلك العالم الموحش الذي ينمو في أحشائه. الآن، هو طفلاً من جديد. اهتمامه أصبح مركّزاً على صعود المقطورة بأي ثمن. رغبته بمغادرة محطة القطار، والعودة إلى عالمه كانت أعمق من أي بحر كان قد شاهده من قبل.

مشهد من فيلم فرنسي

2013/09/04

كانت حياته في هذه اللحظة تبدو وكأنّها مشهد من فيلم فرنسي. هو مُمدّد بجسده العاري على السرير، يُحدّق باللاشيء، وينفث دخان سيجارته ببطء وهدوء. هي كانت تجوب الغرفة الضيّقة، أو هكذا كانت تبدو له، بحثاً عن قميصها الزهري.

لم يكن يعلم أنّ كل ما بناه في ذهنه سيذهب أدراج الرياح في تلك الليلة الباردة. ما زادها برداً أنّ فتاته كانت راحلة. شعوره بأنّها ذاهبة إلى الأبد كان حقيقيّاً. لم يُحرّك ساكناً. بقي مُجمّداً في سريرهما. وخز ما كان يُراوده. كان يُحاول أن يكتشف ذلك الإحساس الغريب الذي كان يتوزّع معدته، وأعماقه، وهو يُحدّق إلى جسدها، ويداها. كان لديه الكثير ليقوله. كان يُود لو أنّها تبقى إلى جانبه أكثر. ولكنّه يُريد أن يكون واقعيّاً في لحظات كهذه. وهذا ما يجعل من حياته حقيقة.

من اللحظة التي نهضت فيها من السرير شعر بالانزواء، والخواء في روحه. كانت تبدو له أنّها أصبحت بعيدة، وفي عالم آخر رغم أنّ المسافة التي تفصله عنها لا تتجاوز المتر ونصف. شعر فجأة بجاذبيّة الأرض، ثقلاً ما استوطن أنامله. هذه ليست المرّة الأولى التي يُصاب بها بثقل من هذا النوع. تأمّل السلحفاة الخشبيّة التي يضعها على أحد رفوف غرفته. بدت السلحفاة مخلوقاً جميلاً وواقعيّاً في آن. هي ثقيلة، بطيئة، كما وتحمل بيتها في جسدها، الذي يحميها من البرد، وترتاح فيه عندما تُريد. "ماذا لو كانت هذه السلحفاة انا؟". خطرت بباله هذه الفكرة. كان يُفكّر بالسيناريوهات. كان يتخيّل أن هذه اللحظات ستكون أقل وطأة، وأكثر حرارة، وأنّ شعور الوحدة لن يُراوده. لم يكن يريد أيّ شيء في تلك اللحظة، سوى أن يحصل على بعض من الدفء الذي تلاشى عند نهوضها الأبدي من السرير.

بدأ الاشتياق يلتهمه. أحسّ بأنّه سيشتاق إليها كثيراً. ذلك كان يزيد من الشعور الغريب الذي يستحوذ على معدته. كانت لديه رغبة بأن يحضنها من خصرها، ويعيدها إلى السرير، ليتنشّقها مجدداً، ليتحسس خديها، عنقها، وظهرها. في هذه الأثناء، شهوته كانت روحانيّة، أكثر من أنّها مجرّد غريزة جميلة تنتابه. لم يكن قادراً على مواجهة هذه الحقيقة بأنّ جسدها سيهجره، ولن يعود إليه. أحسّ بشيء ما علق في حلقه. ولم يقم بشيء. بقي ممدداً في السرير كجندي مهزوم.

ورغم أن هواجس الوحدة بدأت تأخذه إلى زوايا مظلمة من الروح، تعجّب من أنّ ذهنه كان صافياً. تنفّس ما تبقى من هواء في الغرفة. بعد أن حبس الهواء في داخله، شعر برئتاه تكبران. اطمئنّ قليلاً. ارتعشت شفتاه. كان الهواء يُخفف من ثقل الوقت. أخذ جرعة اخرى منه، ولكن هذه المرّة حبسه لوقت أطول. لعبة تنفّس الهواء كانت جسر بينه وبين العالم الخارجي. تراءى له بأنّ كل نفس يأخذه يختفي العالم القديم، ومع كل زفرة يُطلقها عالماً آخراً يتشكّل. تفاجأ بأنّ هذه الفكرة لم ترد في رأسه من قبل، رغم أنّها تبدو بسيطة جداً. عندها أدرك أنّ الاكتشافات البسيطة يُدركها الإنسان في لحظات كهذه. القلق الذي راوده منذ دقائق بدأ يحّل مكانه تعب لحظوي. اجتاحته رغبة بالنوم. لم يعد يبحث عن دفء يُغطّي به جسده. النوم كان وجهته، بعد أن بدا العالم وكأنّه مكانٌ قابلٌ للحياة. تمنّى لو أنّها تنتهي من ارتداء ملابسها بسرعة أكبر، بعد أن كانت رغبته أن تبقى إلى جانبه. كان يُريد أن يُغمض عينيه، ولا يحلم بشيء. هو بحاجة إلى استراحة من كل شيء. كان يعتقد أنّه بعد الاستيقاظ من غفوة كهذه، سيكون العالم مختلفاً، وأقل عبئاً. هذا العالم الذي كان يتمنّى أن يلتقيه بعد أن تغادر هي الغرفة، وينام بسلام.

ابتسم لها وهي تنظر إليه من خلال المرآة التي تقف أمامها الآن. بادلته الابتسامة، وجرى ما لم يعد يُريده. اقتربت منه. حضنت يداه، وقبّلته قبلة قديمة. همست له بأنّها لن تُغادر المكان، وستبقى معه. هذه كانت رغبته قبل دقائق، ولكن ليس الآن في هذه اللحظة. انقلب كل ما كان قد شرع في بنائه منذ دقائق. ها هو العالم القديم يعود إليه، وهو كان قد خرج منه للتوّ. رغبته كانت أن يبدأ عالمه الجديد الذي بدأ يتشكّل منذ برهة. الآن أصبحت هي الثقل. نظر إليها بعينين باردتين. لم ينطق بشيء. كان لديه الكثير ليقوله. كان يُود لو أنّها تُغادره إلى الأبد. ولكنّه يُريد أن يكون واقعيّاً في لحظات كهذه. وهذا ما يجعل من حياته حقيقة، وليس مجرّد مشهد من فيلم فرنسي.

هروب

2012/09/10

كانت تبدو مستسلمة لكل شيء وهي جالسة قرب زوجها في تلك الحانة القديمة. يتشاركان الطاولة مع رجل آخر، زميل زوجها في العمل وتجاوره أيضاً زوجته.

في حين كان زوجها مستغرقاً في حديثه عن العمل، كانت هي تستغرق في ذاتها. لم تكن معنيّة بكل ما يجري حولها. كتّفت يديها الصغيرتان، ووضعت ملامحها جانباً. هكذا أصبح وجهها عارياً من الإحساس. كان وجهاً اجتماعيّاً ليس إلاّ.

لم تتوانى عن إشعار العالم أجمعه بأنّها ملّت أثناء وجودها في هذه الحانة. كان الجميع يُشعرها بالملل. زوجها وأحاديثه التافهة. زميله الذي يهزّ رأسه، وضحكة زوجته المصطنعة. الزمن بدا لها دائريّاً وفجّاً. كان يقتلها بلطفٍ شديد. وكأنّه يدسّ السمّ في كأس النبيذ الذي تحتسيه.

كانت تشعر وكأنّها تُعاقب على اثام لم ترتكبها. وهذا ما كان يُزعجها. لوهلة، فكرت. "هل أعاقب لاثام ارتكبتها في حياة سابقة؟". رددت الفكرة في رأسها، ولكن لم تصل إلى إجابة. كانت مُقتنعة أنّ الحياة ليست عادلة دائماً. هذا ما علّمتها إيّاه والدتها التي كانت ملجأها الوحيد. فجأة، شعرت بأنّها يتيمة، رغم أنّها تُشارف على نهاية عقدها الثاني. أحسّت أنّ والدتها التي توفيت منذ سنوات طويلة قد توفيت للتوّ. هذا الشعور كان يأخذها إلى عالم مظلم في داخلها. عالم لم تعرفه من قبل. ولكنّ كل ما يجري حولها يأخذها إلى هناك.

شعرت بالبرد رغم أنّ حرارة الحانة معتدلة. أفردت على كتفيها الوشاح الذي كان يلفّ عنقها. أصبح رداء يُغطّي بردها. استطاعت أن تضع جانباً شعور اليتم. الوشاح كان كافياً ليُعيد إليها بعض من توازنها. ولكن ذلك لم يقودها بعيداً عن العالم المظلم الذي بدأ يتوسّع في أحشائها. كان كوحشاً نادراً يبتلع ما تبقّى من ضوء في خيالها.

كان زوجها مستغرقاً في توزيع الملل على الجميع. خطر لها أن تُسكته. أن تجعله يصمت إلى الأبد. ولكنّها لا تُعرف ما هي الخطوة التالية بعد أن تقوم بذلك. خافت من المجهول الذي ينتظرها إذا ما قامت بذلك. شعرت بأنّها حمقاء. وقد ترافق ذلك مع نعس ظاهر على جفنيها الصغيرين. لم تكبت ذلك في داخلها. لم تكترث إذا ما لُحظ نعسها. كل ما تمنته أن ترتمي في حضن الفراش، وتغفو كما كانت تغفو عندما كانت في السابعة من عمرها. تتذكّر طفولتها، وتجتاحها رغبة لا يُمكن أن تتحقق بعد اليوم. رغبة أن تعود طفلة يرعاها والداها اللذان يُحباها كثيراً. تنظر إلى تلك الأيّام، وتفتقدها كطفل يفتقد لعبته الجديدة.

زوجها مازال مستمرّاً في حديثه. الآن يتحدّث عن سيّارته الجديدة، والمكلفة. زميله وزوجته أبديا اعجابهما فيها. أمّا هي، بقيت يداها متشابكتان. لم تُعلّق. لم تنطق. لم يخرج منها أي صوت. كانت تُريد لهذه الليلة أن تنتهي. ما كان يُفزعها هو أن تستمر هذه الليلة إلى الأبد. تقلّصت نبضات قلبها إلى النصف. أصبح بطيئاً كالزمن تماماً. كانت قادرة على سماع نبضاتها رغم الضجيج الذي يُحيط بها. ولأنّها كانت في عالم آخر، بعيد ومظلم، كان الصوت واضحاً.
في الواقع، هي لم تكن كثيرة الخوف من ذلك العالم المظلم الذي بدأ يتحوّل إلى واقع تعيشه. كانت تنتظر من هناك صوت ما. كانت تنتظر نداءً ما يقول لها ما يجب أن تقوم به. هل تخرج الآن من الحانة دون أن تلتفت إلى الوراء؟ هل تختفي نهائيّاً؟

لم يعد أي شيء يربطها بكل ما تعيشه اليوم بعد مرور عام ونصف على زواجها بذلك الرجل الذي أصبح مجهولاً بالنسبة لها. انتهى كل شيء. وما يُساعدها على اتّخاذ قرار كهذا هو أنّ لا أطفال يقيّدون أيّ قرار تتّخذه لتبقى، وتُكمل حياتها مع هذا الرجل المجهول. ولكن قرار كهذا، يلزمه جرأة غير اعتياديّة. يلزمه إنسان محطّم. وهذا ما هي عليه اليوم.

أحضرت غريزتها المسرحيّة. حاولت أن تتخيّل المشهد. أن تنتفض من مقعدها، وأن تنظر في عيون الجالسين على الطاولة. وأن تمضي، ببرود، في طريقها نحو المجهول. تخيّلت مشهداً صامتاً. كانت تشعر بأنّ الصمت أكثر تأثيراً في مواقف كهذه. ولكنّها لم تقُم بكل ذلك.

أناملها الصغيرة كانت توخزها. هو برد قارس يجتاح مفاصلها. لم تستطع أن تمنع شفتاها من التنهّد. الحانة تحوّلت إلى جبل جليد ميّت. أصبحت تستطيع الشعور بالضوضاء حولها. لم يكن هذا ما توقّعته عندما نطقت بـ"نعم" أمام المذبح الآلهي. إنّها لكلمة مُكلفة. نظرت إلى زوجها الذي رمقها بابتسامة خفيفة. حاولت أن تكون إجتماعيّة وتبادله الابتسامة. ولكنّها لم تستطع. وجهها كان أزرق كالسماء. اكتشفت للتوّ كم أنّها تكرهه. تمنّت لو أن يكتشف ذلك على طريقته، خصوصاً وأنّها من النادر أن تقول ما يُرادها. كانت تعتقد أنّ ذلك الاكتشاف يعني حريّتها من جديد. حريّة أن تُشارك ليلة السبت مع أناس تُحبّهم، ويُشاركونها ذات الاهتمامات. ولكن زوجها الذي أصبح بعيداً عنها لن يكتشف ذلك. وقد لن يهتم إذا ما اكتشف ذلك. بفطرتها يُمكنها أن تعرف ذلك.

لم تَعد تحتمل الساعات الطويلة التي تقضيها بمفردها في البيت. عام ونصف من العزلة كانت كافية لأن يسكنها شعور عميق بأنّها أصبحت مجرّد شبح مُسن. أثناء ذلك أفكار غريبة كانت تنمو في دواخلها. أصبحت مُثقلة بهاجس الموت. كانت تخاف أن تقع أثناء استحمامها، وتنزف حتّى الموت دون أن يشعر بها أحد. وأحياناً كانت تخاف أن تنسى إغلاق الفرن، وأن تختنق بالغاز. هذه الهواجس تُحاصرها في المنزل. الأرق يُحاوط جسدها النحيف. ولأنّها ليست ممن لديهنّ الجرأة على اتّخاذ قرارات المواجهة. كانت تبحث عن مخرج. كانت تُريد الهروب عبر البقاء حتى النهاية.

منذ سنة بدأت فكرة إنجاب طفل تراودها بشدّة. كانت تشعر بأنّ الطفل سيُغيّر حياتها إلى الأبد. ستمنحه وقتها، طاقتها، حبّها، وكل ما تملكه. كانت تُريد ذلك من أعماقها. الطفل سيُبعد عنها شبح العزلة. سيملأ الخواء الذي يعتصر روحها. كانت تُريد أن تكون مثل امّها تماماً. أرادت أن تكون ملجأ الطفل بعد أن هجرها زوجها الذي مازالت تشاركه السقف. لم تعد تريد تأجيل إنجاب الطفل. ورغم أنّها تعرف مسبقاً أنّ العالم الذي سيعيش فيه طفلها ليس عالماً جميلاً، كانت تُريده أن يأتي. هي لا تقوم بمعاقبة أحد. هي فقط لا تؤمن بأنّ الحياة عادلة.

تُعاود النظر إلى ساعتها. الضجيج مازال يأخذ حيّزه من المكان. زوجها وأصحابه مازالوا يجترّون التفاهات. عقرب الساعة بدا وكأنّه ميّت، لا يتحرّك. الساعة تُشير إلى الحادية والنصف. أما هي، فقد كانت غير آبهة لكل ما يجري حولها. كانت فقط تُفكّر بالطفل الذي سيأتي بعد تسعة أشهر من هذه الليلة.

القطار الذي لن يأتي!

2012/09/03

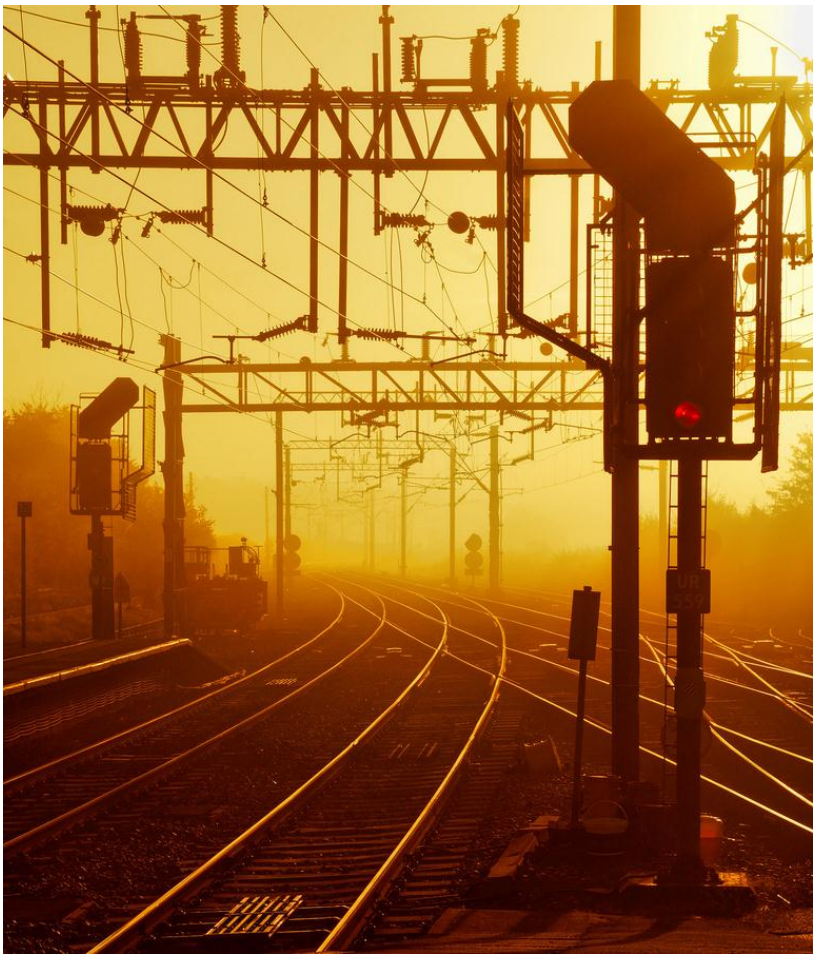

انتظار القطار كان كانتظار غودو. كاد أن يفقد أعصابه وهو يوزّع نظره ما بين ساعة القطار والفتاة التي تُجاوره المقعد الحديديّ في المحطّة. ولكنّه بقي بارداً، كالشمس. كان يقتل الوقت بالإنتباه إلى التفاصيل حوله. الغُبار في الخارج يلتهم المشهد. الصحراء تبقى صحراء، رغم الأبنية الضخمة والأبراج العالية. الشرطي، الذي يقترب من أواخر عقده الثاني، يُحاول فرض وهرته على ركّاب القطار. وجهه خالٍ من الملامح والحياة. أشبه بغيمة شتويّة كسولة لا تُريد أن تمطر. يضع يده اليمنى على خصره كي لا يقع على الأرض، والاخرى قريبة من هراوته التي يخوّله القانون حملها بشكل بارز أمام الجميع. هو الذي يحمل هراوة، ولن يجرؤ أحد على الاعتراض. هذا سبب آخر للزهوّ الذي يملأ مساماته.

نسي الشرطي سبب دخوله هذا العالم، عالم الشرطة والأمن. بالاحرى، لم يكن هناك سبب لكل ما يعيشه اليوم. والده قرّر إدخاله إلى الشرطة. وهذا ما جرى. لم يُقاوم، ولم يعترض. وحتّى إن اعترض فلا خطط اخرى، أو اقتراحات في جعبته لتكون بديله. لا رؤية له عن مستقبله. لم يكن لديه رأي بما يجري. من بعيد كان يُراقب حياته. وفي سرّه لم يكن قلقاً، كان يُعرف أنّ أحداً آخراً سيأخذ عنه القرار، عند كل منعطف يواجهه. وهذا ما كان.

والده لا يأخذ القرارات عنه لأسباب سلطويّة. وهو أبعد ما يكون عن ذلك. كان يُريد لابنه أن يكون كما يُريد. ولكنّ ابنه كان دائماً كذلك. بلا قرار، ويميل بفطرته إلى الخضوع للقرارات، وتنفيذها. فهو مجرّد شخص تنتفي منه ملامح القيادة. ولأنّ العالم في الخارج مليء بالشر، فضّل أن يكون ابنه شرطيّاً يُنفّذ قرارات الضباط الأعلى منه على أن يكون قاتلاً مأجوراً يعمل لإحدى المافيات الروسيّة، أو السلافيّة الذائعة الصيت في المدينة.

عدم امتلاكه لحدٍ أدنى من الأحلام، أدخله الشرطة بعد تخرّجه من المدرسة مباشرة، وهذا ما يُعرقل ارتقائه في عمله، ويُبقيه مجرّد شرطي أمن لمحطة القطار. ورغم أنّه خالٍ من الطموحات، يراوده قلق بين حين وآخر. قلق غريب، ومختلف عن كل ما مرّ به من قبل. كان يخاف أن يعلق في محطّة القطار إلى الأبد، وأن يعبر القطار الأخير دون أن يستقلّه. كان بلا وجهة. المئات أمامه يرحلون كل يوم إلى وجهتهم، أما فهو فيبقى عالقاً هنا، واقفاً على رصيف المحطّة، بوجه يسكنه القلق الوجودي. هذه الفكرة استولت عليه بعد أشهر طويلة من التحديق بكل شيء داخل المحطّة، حتّى أنّه حفظ تقريباً ملامح جميع من يرتادون القطار. كان يشعر وكأنّه يمشي على مكنة الركض في النادي الرياضي (الجيم). كان يركض بعيداً، ولكنّه كان يبقى مكانه. خائباً، وبليداً.

ولأنّ محطات القطار آمنة نسبيّاً، فقد كان لديه الوقت الكافي لتأمّل مستقبله. كان يتخيّل نفسه عجوزاً، هزيلاً ذو شعراً رماديّاً، يقف منتظراً القطار دون أن يستقلّه. لم يُشارك هذا القلق مع أحد من أصدقائه أو زملائه المعدودين على الأصابع. كان يخاف من أن يسخروا منه. كان لديه شعور عميق بأنّه سيموت عند رصيف القطار، ولن يُلاحظ أحد ذلك.

هو لا يأخذ القرارات. القدر حدّد مسار حياته. لن يرسم طريقاً آخراً قد تكون أكثر قلقاً. سيعيش قدره المشؤوم حتى النهاية.

على بعد خطوات منه، رجل في منتصف خمسينيّاته بملامح سمراء، وقامة قصيرة يُحدّق بالفراغ وينتظر القطار كأي أحد آخر يقف على رصيف المحطّة. هو عاديّاً بكل شيء. طريقة استلقائه على العامود لا استثناء فيها. وكأنّه يتعمّد الظهور بأنّه مجرّد رقم آخر من أرقام المكان. هو كالذي يرفض تهمة دون أن توجّه إليه. يُريد فقط أن يصل إلى وجهته دون أن يعوقه شيء. الخيبات التي عاشها في عشرينيّاته كانت كافية لتلقيه جانباً. لم يعُد يريد شيئاً. كل ما كان يُريده حقّاً في تلك اللحظة، أن يركب القطار، ويعود إلى غرفته، ليُمارس الغفوة بعد نهار شاق. عمره كان ينقص في تلك المحطّة، وهو لا يرغب بذلك.

رغم أنّه كغيره من أبناء جيله عشق عبد الناصر، وشارك في مظاهرات القاهرة تأييداً له، ولكنّه احتفظ بمساحته الخاصة، وحافظ على المسافة بينه وبين القائد. كان يخاف من التماهي، ومن تبعات ذلك على حياته اليوميّة. لم يكن يُريد لملامحه أن تختفي وراء ملامح الأيقونة التي تقود البلاد. القلق من الخيبات كان هاجسه. هذه المسافة لم تحميه من الخيبة التي أصابت أبناء جيله. لم يحتمل الهزائم المتتالية. في بدايات ثلاثينيّاته، غادر مدينته، ليعمل في أحد المطاعم التي تقدّم الأكل المصري في مدينة نيويورك.

تغيّرت حياته كثيراً في هذه المدينة. كان على تماس مع كل الثقافات، وهو الذي تخيّل أنّه سيموت في القاهرة دون أن تكون لديه الفرصة من الخروج منها. بالاحرى، لم تكن لديه الرغبة بالخروج من مدينته. الأيديولوجيا التي حملها بفطرته أوهمته بأنّ الجنّة لن تكون خارج مكانه، ولكن تراكم الهزائم، دفعه لترك المكان ورائه.

لم يعمل لفترة طويلة في المطعم. بعد سبعة أشهر، تعرّف على أحد روّاد المطعم، وهو عضو في فرقة موسيقيّة تلعب الجاز في حانات نيويورك. ولأنّه أعجب بشخصيّته المحببة، اقترح عليه أن يعمل كمساعد لوجستي للفرقة. وهذا ما جرى.

ترك المطعم، وأصبح مرافقاً دائماً للفرقة، يذهب معهم أينما ذهبوا. ويستمتع بامتياز الاستماع إلى موسيقى الجاز عن قرب. طبعاً، هذا النوع من الموسيقى كان جديداً عليه، ولكنّه سرعان ما عشق هذه الموسيقى المتمرّدة. لقد كانت كالخلاص بالنسبة له.

الآن، وهو واقفاً في المحطة، منتظراً القطار، لم يَعُد يذكر ما الذي قاده إلى هذه المدينة الرابضة فوق الكثبان المتحرّكة. كل ما يتذكّره أنّ قدره انتهى به عاملاً يدوياً في أحد الورش. لوهلة يشعر بأنّه علق هنا. ولكن الشعور الذي يخافه، ويُشكّل له كابوساً مزعجاً، أنّه أصبح غريباً عن القاهرة، ولا يستطيع العودة إليها، ليُكمل حياته هناك، إذ انقطعت جميع صلاته معها، بعد أن توفيّ والداه، ولم يؤسس لعائلة تكون حضناً له إذا ما قرر العودة. وحيث هو اليوم أيضاً غريباً. لا صلة له مع هذا المكان، ومهما حاول الالتصاق فيه، فهو سيبقى غريباً. الغربة تكبر في أحشائه، تعتصره، وتستحوذ على شرايين دماغه. أحياناً، قبل خلوده إلى النوم، يشعر بأنّه على مشارف الإنهيار. ينظر من نافذته الصغيرة، ويرى العالم ضئيلاً، وموحشاً. يختنق وهو يُحاول إشعال سيجارته. يستمع إلى أغنية لـ"نينا سيمون" يُخمد بها شعور الوحدة. يُحدّق في سقف الغرفة إلى أن يموت مؤقّتاً.

هو لا يؤمن بالنهايات المقررة سلفاً. ولكنّه يُدرك بفطرته أنّ هذه المدينة هي وجهته الأخيرة. منذ اللحظة الأولى لوصوله إليها، عرف أنّه وصل إلى نقطة اللاعودة. لم يكن يملك خيارات كثيرة لتغيير مسار حياته. هي الخيبات رفيقه الدائم، وقد اقتنع بذلك لحظة مغادرته القاهرة، ولكنّه لم يخطر بباله أنّه لن يعود إليها إلاّ كجثّة زرقاء.

في هذه اللحظة، مازال يُحدّق بالفراغ، وذهنه في مكانٍ آخر. لا يُريد سوى أن يكون عادياً. مضى على انتظاره أربعة دقائق. حياته ستنقص دقيقة أخرى أثناء الإنتظار الطويل.

على المقعد الحديدي، مازالت الفتاة جالسة متصنّعة الهدوء. ولكن حركة يديها كانت تُشير إلى أنّ التوتّر يقبض على أنفاسها، وحركة عينيها. كانت تبحث عن مخرج لكل ما بدأت تُعانيه منذ تخرّجها من الجامعة. كل ما كانت قد رسمته في رأسها منذ بلوغها السبعة عشر عاماً بدا لها وكأنّه مملكة من سراب.

لم تكن تعلم أنّ ثقافتها الباكستانيّة ستكون يوماً ما لعنة لها. ولم يخطر ببالها أنّ الإنفصال بين الهند وباكستان سيأخذ حيّزاً من حياتها بعد مرور أكثر من نصف قرن عليه. لم يكن ذلك وارداً، خصوصاً وأنّها ولدت هنا، ولكن ما لم يكن في حسبانها أنّ الثقافات لديها القدرة على العيش خارج مكانها. هي كانت تُعرف ذلك، فهي ولدت وعاشت كباكستانيّة، ولكنّها كانت تعتبر أنّ الأمور ستتغيّر مع الوقت، ولكن جرت الأمور عكس توقعاتها.

اكتشاف أهلها مؤخّراً لعلاقتها مع زميلها الهندي التي بدأت منذ أيّام الجامعة، حوّل حياتها إلى جحيم متوتّر. التقاليد الموروثة لا تُشجّع على علاقات حيث تختار الفتاة لشريكها، عدا عن أنّها ترفض بشكل قاطع أن يكون الطرف الآخر من العلاقة هنديّاً، وليس مسلماً. هو كالإشراك بالله تماماً بالنسبة لهُم.

كانت تُخفي علاقتها به مؤقتاً. كانت تُعرف أنّها لا تستطيع إخفائها إلى الأبد. ولكنّها كانت تكتسب الوقت لإيجاد مخرجاً مقبولاً لها ولحبيبها، ولأهلهما. ليست وحدها في تلك الدوّامة. أهله أيضاً يرفضون فكرة أن يتزوّج بإمرأة من خارج السرب، رغم أنّهم عائلة منفتحة إجتماعيّاً، وذهنيّاً، ولكن جذور الثقافة، ممتدّة كجذور السنديان في أعماق الناس منذ فجر التاريخ.

خوفهم على زواجها من الشاب الهندي، دفعهم إلى البحث عن شاب باكستاني مسلم لتقترن به. في تلك الأثناء، بدأت العائلة بالتضييق على حركتها، ومسائلتها عن كل ما تقوم به، ليمنعوها من الالتقاء بحبيبها. محاولاتهم كان مصيرها الفشل، فهي بقيت على اتّصال به، ولكن بشكل محدود.

عندما بدأ أهلها بالبحث عن شاب تقترن به، عرفت أنّها لن تستطيع أن تهرب من قدرها. تُفزعها فكرة أن تعيش مع شخصاً لا تحبّه. هذه الصورة ترهق روحها. ومؤخراً يراودها كابوس واحد، يتكرر ليلة تلو ليلة. تمشي في غرفة مظلمة لامتناهية، تخلو من الجدران، الأبواب والنوافذ. تستيفظ عند منتصف الليل من الحلم، والعرق يتصبب من يديها. تُصلّي في قلبها للإله أن يُنقذها، وأحياناً عندما تفقد الأمل منه، تتمنّى لو أنّ الأرض تبتلعها.

الوقت يمضي، وهي تنتظر القطار. وكلّما تأخر، كلّما اقتربت دقيقة من موعد زواجها الذي أصبح أقرب من أي كابوس آخر. عيناها التي خبّأت فيهما دموع كثيرة، كانت مفتوحة لتستوعب السماء. الكحل الذي يُزيّن عينيها الجميلتين تبلّل بدموعها. التقطت أنفاسها وكأنّ شيئاً لم يكن. رغبتها كانت أن لا يأتي القطار. بلحظات، ارستمت ابتسامة ماكرة على ملامحها، وكأنّها أعدّت خطّة ما لإنهاء الكابوس.

المشهد لم يتغيّر كثيراً. دقيقة ليصل القطار. الرجل الأسمر يتنفّس الصعداء، والفتاة الباكستانيّة لم تعد مكترثة لأي شيء. مصيرهما ينتظرهما على الجانب الآخر. ينظر الشرطي إليهما بحسد، وضغينة غير ظاهرة. كان يُريد أن يكون أي أحد آخر. كان يحلم بأن يكون مجرّد راكباً مجهولاً للقطار الذي لم يصل بعد!

أهذا القطار يقلّني إلى الجحيم؟

2010/09/18

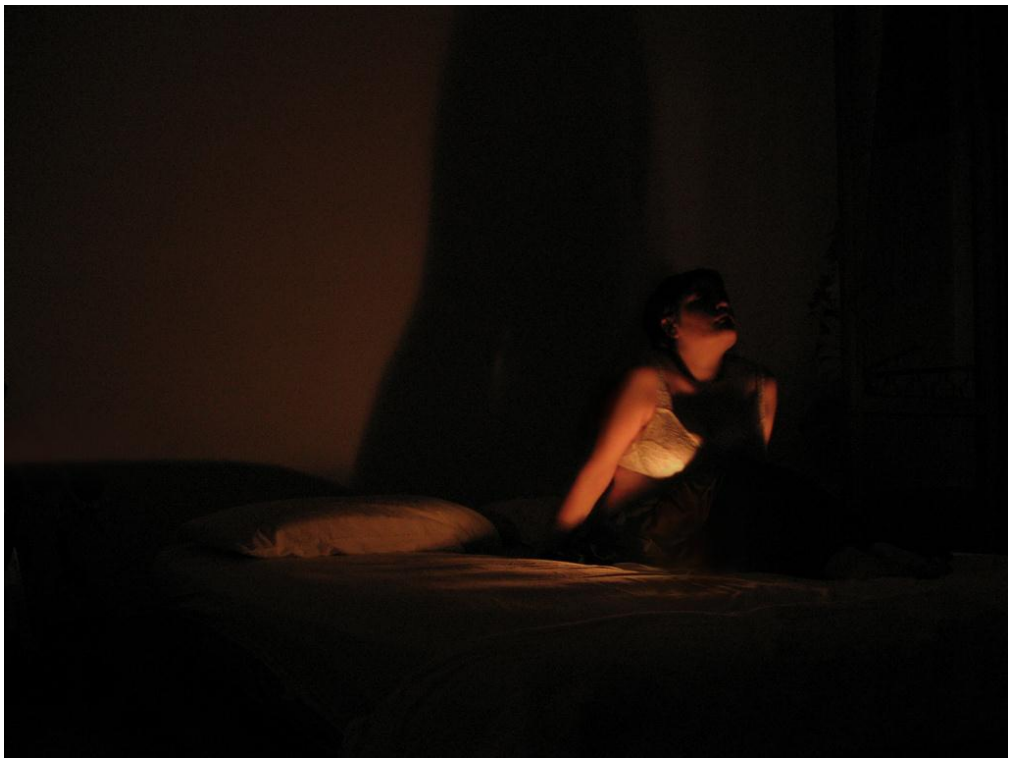

"أنا خارج الوقت"

ملاحظة: تجري هذه الأحداث في مكان ما، في المستقبل القريب!

في ذلك الصباح، لم تكن الشمس مجرّد كائن يعشق الاشتعال. خلسة، تهرب إلى أرجاء الغرفة، توزّع اشعّتها على الأشياء، وعلى جسدها الحنطيّ.

هو بقي في الظل. على الكرسيّ الخشبيّ شارداً في خيوط الشمس وتفاصيل وجهها. لم يحاول تغيير المشهد. استمرّ في تنشّق وجهها عن بعد. تراوده القهوة، ليستيقظ. يسرع إلى المطبخ ليعدّها، ولكن ما ارتسم في مخيّلته يبدو عبثيّاً في هذه اللحظة. عضلات جسده خانته. لم يقوى على الوقوف، أو حتى على الحركة. الصمت يبارح المكان، أما القهوة، فبقيت شهوة تلاحقه حتى ساعات متأخرة من النهار.

كان يريد البوح لها بالكثير، رغم أن هذا اليوم الثالث الذي يلتقيه بها. لطالما آمن بأن الوقت مجرّد وهم يأسر قاطني الكوكب. "أنا خارج الوقت". معادلة رافقته منذ زمن بعيد.. ومازالت!

هذه الفكرة لم تغب عن سلوكه، حتّى أن البعض يظنّه صديق قديم لزوربا اليوناني.

***

"تحت الثلج يختبأ بركان لعين!"

في استلقائه الجبري على الكرسي، مرّت الأيام الثلاثة الأخيرة في رأسه وكأنها فيلم قصير، لا سيناريو مدبّر لها، أو حتّى مخرج هاو. مشاهد غير مكتملة تداهم ذاكرته المشوّشة لأبعد حدود. تذكّر لحظة لقائها في إحدى محطات "المترو" الممتدة تحت المدينة. عيناها الممتلئتان بالمطر وثوبها الغجري الملوّن، عناصر كافية لجذبه نحوها. "أهذا القطار يقلّني إلى الجحيم؟"، ببرودة، عبر مفتعلة، سألها مقترباً منها. رمته بقطعة ثلج أثقل من سؤاله. "الجحيم هو نحن."

هذه العبارة أشعلت بركاناً يسكنه، حسب أنّ الحروب التي مضت منذ سنين طويلة قد أطفأته.

في ذلك اليوم، تغيّر إيقاع الفوضى، ولم يتغيّر شيء. لم يذهب شمالاً لقضاء العطلة في إحدى القرى النائية، بعيداً عن ضوضاء المدينة وغبارها المستعر. اتّجه جنوباً، برفقة الفتاة التي التقاها للتوّ. جنوباً، حيث الجحيم الذي بحث عنه مطوّلاً.

هناك، لم يكونا غريبين، رغم أنّهما لا يعرفان أحداً في هذا المكان المسكون بالغرباء. بوهيميّان يجولان في الأنحاء، وكأنهم يلبّون نداء دفين في أعماق أرواحهم. نداء الجحيم. كانا يعرفان أن ما يجري فوق الأرض يشبه لحد بعيد ما يجري تحت الأرض. الفرق الوحيد، أنّ ما تحت الأرض أكثر حقيقة من أي شيء مضى!

***

"ولكن، ماذا عن الآن؟"

رغم محاولته نفض "الوقت" بعيداً عن حياته، لم يستطع الهروب من هذا السؤال، الذي تحوّل إلى هاجس يخيفه. رحلتهما القصيرة ادخلته إلى دوّامة اسئلة اخرى يحاول في هذه اللحظة أن يؤجّلها.

الحر الذي اخذ بالتوسّع في أنحاء الغرفة يذكّره بالشلل الذي يقوّض عضلات جسده. الهواء يتقلّص في رئتيه. عيناه خائرتان ووجهه هزيل وكأنّ جوع قديم يفترسه بحقد اسبرطي. أما الفتاة التي لم تستطع قسوة الشمس أن تحرّكها، ولو شبراً واحداً، فلم يعد يعرف عنها شيئاً. "شيء ما في داخلي يبتلعني". هذا آخر ما لفظته قبل أن تدخل في نوم أبدي، حسب أنه غيبوبة مؤقتة نتيجة التعب الشديد.

مع تقدّم الوقت، الذي حسب أنّه مجرّد وهم يأسر قاطني الكوكب، كان يقترب من حقيقة تصفع مساماته. "ربّما تأخرت، ولكن لا أحد خارج الوقت". يقاوم الرغبة بإغلاق عينيه. عطش شديد يتملّكه. الصحراء تتّسع من حوله وداخله، ولكن من يسمع همسه الذي يبقى حبيس دماغه.

المرض يفتك بعظامه. يتذكّر ما شعرت به الفتاة التي لم يتسنّى له أن يعرف اسمها. "شيء ما يبتلعني". من جديد يقاوم إغماض عينيه اللتان تحوّلاه لشبح فاقد القدرة على كل شيء. شبح يلتهمه الوقت.. وفيروس لا يعرف كنهه أحد حتى الآن.

بلحظة، يسقط الكوكب، وكل ما عليه. عيناه تغمضان وعطش أزلي يحاصره.

من حوله بدا العالم وكأنه ثمرة تهترىء.. ببطء شديد!

***

مضى اسبوع على موتهما الأخير في الغرفة المعتمة. الرائحة المقززة تعبق بالمكان. تمتد للشقق المجاورة، وتطاول على الشارع. ولكن من يؤكّد وجود الرائحة إن لم يكن هناك من يشتمّها؟

مَن لم يحصده الفيروس هرب بعيداً نحو الجبال النائية قبل أن يُبتلع ويتحوّل لجيفة لا أحد يريد الاكتراث لها.

ورغم ذلك، استطاع الفيروس الذي لقّب لاحقاً بـ"الملك الأسود"، إرسال الآلاف إلى النوم الأبدي، وكأنه ضابط عسكري يعرف جيّداً كيف يطيع قائد الجيش. وفي غضون أشهر، استطاع تحويل المدينة إلى مكان لا أحد يتمنّى أن يعيش فيه. النفايات تتراكم كالجبال على أرصفة الطرقات. الجرذان تزاحم الناس على ما تبقى من طعام في المتاجر والمحلات، حتّى أن الحصول على كأس من الماء النظيف أصبح حلماً مستحيلاً.

وحتى كتابة هذه الأسطر، مازال "الملك الأسود" يجول في الأرجاء. يحصد الأرواح. متربعاً على جبل من الهياكل العظميّة، ولا أحد يعرف من أينَ جاء.. ومتى سيرحل!

ليلة هروب البطريق من القطب الجنوبي

2010/10/21

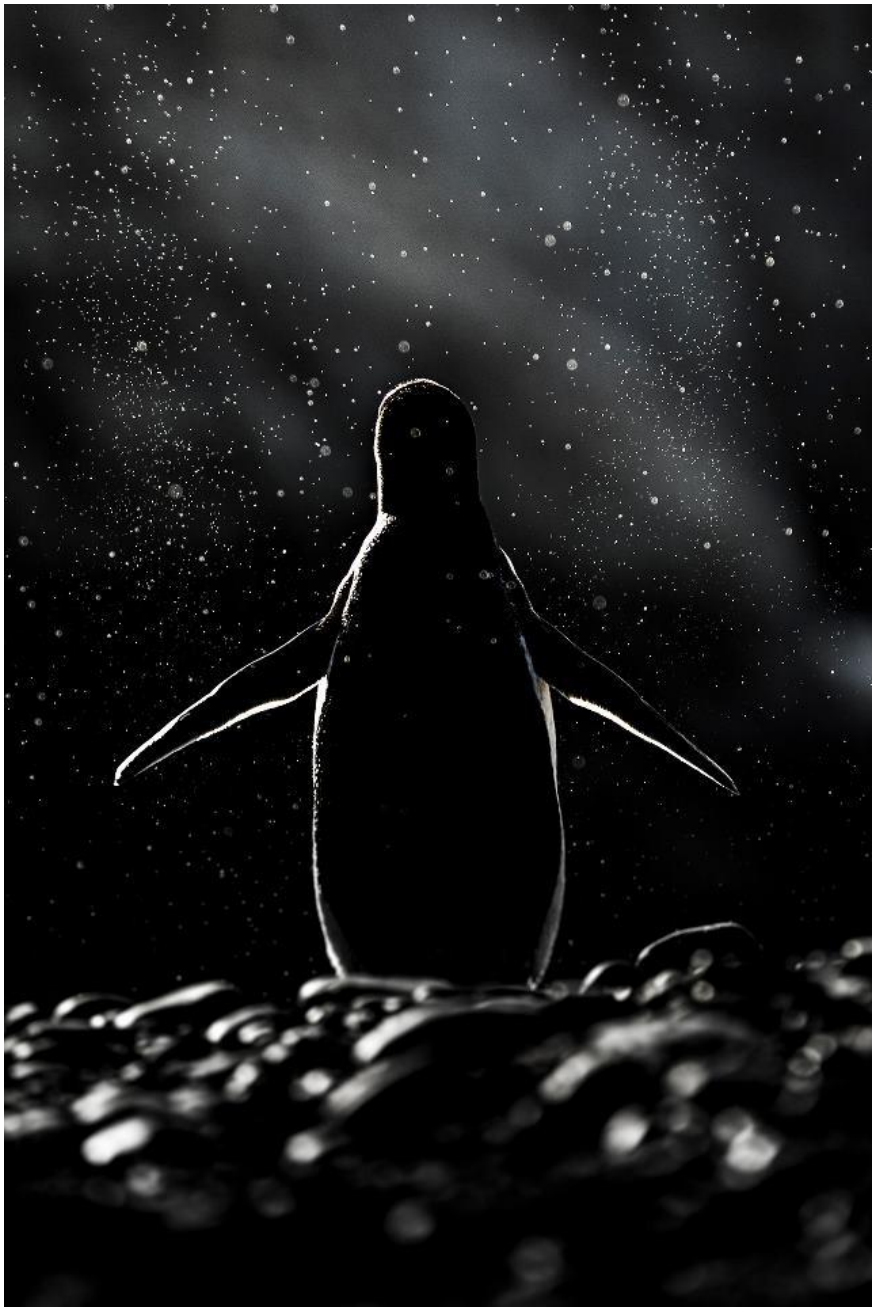

.1.

فجأة، يطرق أحدهم باب غرفته. الفوضى تستحوذ على المساحة برمّتها. اكتظاظ لا يفهمه أحد. ينظر إلى أشيائه الموزّعة بين الطاولة والكنبة والحائط. يتفقّدها، وكأنه يبحث عن كتاب يملأ جمجمته التوّاقة للجنون. هكذا هو. يكره، بفطرته، الجلوس في مكان واحد مع أشخاص مملّين. فكيف يجلد ذاته ويقرأ لهؤلاء؟

وبعبثيّة تستقر عينيه على رفوف المكتبة المعلّقة على الحائط. الكتب المكدّسة لا تعني له شيء.

للحظة، يفقد سمعه. بيتهوفن يحتل المخيّلة. "لا أريد أن أكون مثله". يهرب باتجاه الباب، وكأنه يؤجّل صراعاً سيخرج منه مهزوماً.

.2.

قبل أن يمد يده إلى الباب ليفتحه. تذكّر. "لماذا أحدهم يريد زيارتي؟". تخيّل أحد الأصدقاء يقوم بزيارته. وقبل انهمار الأسئلة عل رأسه. فتح الباب بازدراء.

إنه بطريق. يقف أمام غرفته بعينين حائرتين. يحمل كيساً من القماش، عرف لاحقاً بأنه كل ما يملك. "ولكن ما الذي يدفع بطريق لزيارتي؟". غرابة المشهد اربكته. استمرّ في النظر إليه، ولكنّ في الواقع، عينيه كانتا سارحتان في اللاشيء. فراغ ملأ شراييه، وكأنّ الصيف امتصّ ما تبقّى من نبض في جسده النحيل. البطريق مازال يراوح مكانه عند العتبة. اليأس ارتفع من قدميه وصولاً إلى ثغره. ورغم ذلك، بقي ينتظر الترحيب به، ليدخل.

.3.

الطريق التي قطعها البطريق كانت طويلة وشاقّة. مرّت فترة طويلة قبل سلوكه درب الخيارات الصعبة، التي كانت تعتبر مستحيلة بالنسبة للأجيال الغابرة من أبناء شعبه.

فالهجرة إلى بقاع اخرى من الكوكب هو بحد ذاته مغامرة غير محسوبة. لم يناقش أجداده وآباءه مواضيع تتعلّق بهجرة الأرض. آنذاك، الحصول على الغذاء، المتوفّر، كان الأولويّة الجماعيّة. أما ما تبقّى من ظروف حياتيّة فالأرض تؤمّنها: جليد، حرارة منخفضة طيلة الوقت، ومساحات تتسّع للجميع.

هذا كان في الماضي!

أما اليوم، فقرار ترك اليابسة البيضاء، والاتجاه نحو اليابسة الصفراء لم يعد خيار ارادي يأخذه بكامل إداركه الذهني والحسّي. كل ما يحيط به تغيّر. الأرض التي كانت تحميه، وتؤمّن استمراريّته هو وأبناء جلدته، أصبحت قاسية عليه. وتهدد وجوده.

.4.

علامات التعب بدت على ملامح البطريق. أسرع صاحب الغرفة إلى المطبخ وأحضر كوباً من الماء البارد. شربه البطريق على دفعات. يبدو أنّه يتلذذ بدخول البرودة إلى أعماقه، بعد أن أفتقدها لفترة طويلة.

فهم البطريق علامات التساؤل والاستغراب المرسومة على وجه الشاب. عندها، وضع الكوب جانباً ببطىء شديد، أخذ نفساً طويلاً وكأنه يتنفّس للمرّة الأولى. وشرع في الحديث.

جلس الشاب على مقربة منه. مذهولاً بقدرة زائره على جذب الانتباه إليه.

"لستُ هنا بإرادتي" تمتم البطريق عبارته الأولى. وبدأ سرد سلسلة من الأحداث جرت منذ عشر سنوات، وغيّرت مجرى حياة القاطنين هناك. إذ تحوّلت الأرض التي يعيش عليها إلى جحيم على شكل سائل. جبال الثلج تحوّلت إلى بحيرات فاترة. أما انقراض الأسماك التي يقتات منها، فهي مسألة اخرى.

استغرق مستمعه بالنظر إليه. تردد قبل سؤاله "أين ذهب الآخرون؟". الوقت يتسمّر في شرايين البطريق. شعر بأن السؤال طعم ليجرّه إلى ذكريات سوداء لا يريد التطرق إليها. اختصر: "أنا البطريق الاخير!".

.5.

في هذه الأثناء، راودت الشاب أفكار كثيرة. فكّر بكل ما يقوم به الإنسان منذ أكثر من مئة عام. فكّر بتصرفاته تجاه كل ما يحيط به من أرض، بحر وسماء. كل ما نقوم به يقود إلى حياة جحيميّة.

أكثر ما تذكّر الكتب التي تملأ مكتبته ولا تملأ جمجمته. الكتب المملّة، والتي هي في الواقع ليست إلاّ تلف للاشجار والمساحات الخضراء. فكل كتاب لشخص ممل يعني قطع شجرة إضافيّة، ما يعني ذوبان تلّة من الثلج في موطن البطريق. "هُم جزء من الكارثة" كبتها في داخله. "لا ينقصه إحباط أكثر". البطريق لا يعلم بوجود هؤلاء حتّى.

قام الشاب باتجاه الثلاجة ليجهّزها. هذه المرّة، تستقبل زائر حي، ينبض. البطريق يريد بعض من الراحة. لم تمض لحظة على وضع رأسه على كومة الثلج المكدّسة، حتى دخل في غفوة لم يذقها منذ تحوّل موطنه إلى جحيم.

"عند العشاء احدّثه عن اشياء لا يعرفها. بالنهاية، سيكتشف حقيقتنا".